الفصل الثاني

تكوين إقبال الفكري والثقافي

تكوين إقبال الفكري والثقافي

إن تكوين البنية الفكرية والثقافية للإنسان في الحياة المعاصرة أمر معقد جداً، إذ تتداخل مؤثرات كثيرة فيها خلال عمر الإنسان، والأمر مختلف في الحياة الأولى، إذ إن المؤثرات معدودة، فهي لا تتعدى البيت والمعلم والكتاب والمسجد.

أما في الوقت الحاضر، فيشترك مع البيت في تكوين فكر الإنسان وثقافته وتربيته، وسائل التعليم والتربية، ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، المتعددة في عقيدتها، وفكرها، وأهدافها، فضلاً عن تعدد البيئات الثقافية التي ينتقل إليها الإنسان، وذلك لتيسر وسائل الانتقال السريعة، التي تجوب الآفاق خلال مدة قصيرة، كل ذلك يؤثر في بنية فكر الإنسان وثقافته. أما الصياغة النهائية لهذه البنية فتتكامل خلال عمر الإنسان، وحسب المؤثرات الأولى في حياته. من خلال هذه النظرة نمعن النظر في شخصية إقبال الفكرية والثقافية فنجده قد نشأ في بيت علم وتصوف، في بيئة صغيرة محدودة، وتلقى علومه الأولى للشريعة الإسلامية والقرآن والحديث في مدرسة أولية، كان لمعلمها أثره الكبير في توجيهه طوال عمره، ثم انتقل إلى لاهور المدينة الكبيرة بالنسبة لقريته الصغيرة، وتلقى علومه الجامعية فيها، وكان للدراسات الفلسفية واللغوية أثرها الفاعل فيه، ثم انتقل إلى إنكلترا حيث درس القانون...

ثم إلى ألمانيا حيث نال شهادة عالية في الفلسفة، وخلال دراسته في الخارج التقى بالفيلسوف الفرنسي " برغسون " وغيره من الفلاسفة الغربيين، هذه البيئات المختلفة فكرياً وثقافياً، كان لها الأثر الفاعل في بنيته الفكرية والثقافية.

ومن هنا يمكننا أن نشبه شخصية إقبال بالنهر المتدفق الذي تصب فيه جداول متعددة مختلفة المذاق والصفاء، ولكنها لم تكن لتؤثر في تغيير مجراه أو عذوبته. والفكر الغربي – كما سنرى خلال هذا البحث – أثر في أسلوب تفكير إقبال وفي منهجه العقلي، فجاء بنتائج لا يوافقه عليها العلماء المسلمون، وإن كان هذا لا ينقص من قدره وعبقريته، فكل إنسان معرض لما تعرض له، وكما قال الإمام مالك[1] رحمه الله تعالى: «كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر» (يقصد رسول الله ﷺ). ويمكننا إيجاز مصادر تفكير إقبال بما يأتي:

أولاً: المصدر الإسلامي، والذي يتفرع إلى:

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية الشريفة بما تحتويه من حديث وسيرة.

٣- سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

٤- الفلسفة الإسلامية والفكر الصوفي.

٥- الأدب الإسلامي عامة والعربي خاصة.

ثانياً: المصدر الغربي والذي يتفرع إلى:

١- الفلسفة والفكر الغربي عامة.

٢- فلسفة نيتشه الألماني.

---

(١) الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أنس، جده مالك من كبار التابعين ووالد جده أنس رضي الله عنه. صاحب كتاب الموطأ في الحديث – وهو أول كتب الحديث – وضعت فيه الأحاديث مصنفة ومبوبة، والإمام مالك أحد أصحاب المذاهب الأربعة، ولد سنة ٩٥ هـ في المدينة المنورة، وتوفي فيها سنة ١٧٩هـ، ودفن في البقيع.

٣- فلسفة ليبنتز الألماني.

٤- فكر جوته الألماني وأدبه.

٥- فلسفة برغسون الفرنسي.

أولاً: المصدر الإسلامي:

ويعد هذا المصدر أساس البناء الثقافي والفكري لإقبال:

١- القرآن الكريم:

وتأثير القرآن في فكر إقبال وثقافته لا ريب فيه، بل يعد منبع أفكاره وفلسفته الذاتية، وإبداعه الشعري وسر بلاغته، وهذا ما عبر عنه إقبال حين سأله العالم الجليل سليمان الندوي أثناء زيارته "لكابل" بدعوة من "نادر شاه" ملك الأفغان عن سر بلاغته التي اكتشف بها أسرار الدين ومعالم الحق، ووصل إلى أساليب من التعبير قلَّ أن يصل إليها أهل الفقه والعلم وغيرهم من القائمين على أمر الهداية والتوجيه؟

فقال إقبال: «يرجع الفضل في كل ما أنشأته من شعر أو نثر، إلى توجيهات أبي رحمه الله، فقد كنت تعودت أن أقرأ القرآن. بعد صلاة الصبح، وكان والدي يراني فيسألني: ماذا أصنع؟ فأجيبه: بأني أقرأ القرآن وظل على ذلك ثلاث سنوات متتالية يسألني سؤاله، فأجيبه، وفي ذات صباح قلت بعد إجابتي: ولكن لماذا تسألني عن شيء أنت بجوابه عليم؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك: اقرأ القرآن كأنه نزل عليك، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن بحره ما نظمت»[1].

---

(١) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي (مرجع سابق) – ص ٨.

وفي زيارة إقبال لأفغانستان قدّم للملك "نادر شاه" نسخة من القرآن قائلاً: «إنّ هذا الكتاب رأس مال أهل الحق، في ضميره الحياة، وفيه نهاية كل بداية، وبقوته كان علي، فاتح خيبر». فبكى الملك وقال: «لقد أتى على "نادر خان" زمان، وماله أنيس سوى القرآن، وهو الذي فتحت قوته كل باب».[١]

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي: «ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن، ويطير في أجوائه، ويجوب في آفاقه، فيخرج بعلم جديد، وإيمان جديد، وإشراق جديد، وقوة جديدة، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاقه. ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد، والعلم الأبدي، وأساس السعادة، ومفتاح الأقفال المعقدة، وجواب الأسئلة المحيرة، وأنه دستور الحياة ونبراس الظلمات. ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب، وفهمه ودراسته، والاهتداء به في مشكلات العصر، واستفتائه في أزمات المدنية، وتحكيمه في الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ويضع آخرين. يقول في مقطوعة شعرية:

«إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة فتقرأ عليك سورة (يس) لتموت بسهولة، فوا عجباً!! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحة وسهولة».[٢]

---

(١) روائع إقبال للندوي (من ديوان مثنوي مسافر) – (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق – ص ٤٢-٤٣ والمقطوعة الشعرية من ديوان أرمغان حجاز.

هذه هي مكانة القرآن عند إقبال، حتى وصف بالشاعر القرآني؛ وذلك لسببين: أولهما: أنه استلهم فلسفته كلها من القرآن الكريم، وقد أشار المودودي رحمه الله إلى ذلك بقوله: «إن كل ما يفكر فيه إقبال، كان يفكر بعقل القرآن، وكل ما كان يراه، كان يراه بعين القرآن».[١]

وفلسفة إقبال حول الذات الإنسانية، استنبطها من القرآن الكريم، إذ إن كثيراً من الآيات تذكر الذات الإنسانية في كينونتها وحريتها، وثوابها، وعقابها، ونموها الروحي والعقلي. يقول إقبال[٢]:

«هناك أمور ثلاثة واضحة كل الوضوح في القرآن:

١- أن الإنسان قد اصطفاه الله ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (طه).

٢- أن الإنسان بالرغم من أخطائه جميعاً أريد أن يكون خليفة الله في أرضه.
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠).
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

٣- أن الإنسان أمين على شخصية حرة أخذ تبعتها على عاتقه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب).

وفلسفة إقبال في الإنسان الكامل أخذها من القرآن.

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

---

(١) مقدمة محمد إقبال وديوان أرمغان حجاز- (مرجع سابق) – ص ٢١.

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام (مرجع سابق) – ص ١٠٩.

وقال تعالى: ﴿ ...إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ (المعارج).

وقد وصف الله الإنسان الكامل بكلمات قليلة بليغة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (المائدة).

وكذلك فإن مراحل تربية الذات عند إقبال استلهمها من القرآن وهي: (الطاعة، وضبط النفس، والنيابة الإلهية)[1]

فآيات الطاعة والأمر بها في القرآن تزيد على إحدى وخمسين آية، وكذلك آيات ضبط النفس وقيادتها والالتزام بالشرع لتكسب الحرية والشجاعة وعدم الخوف إلا من الله كثيرة في القرآن.

أما كون الإنسان خليفة في الأرض فتمثلها الآيات التي ذكرت آنفاً من سورتي البقرة ٣٠، والأنعام ١٦٥.

وفي ديوان «رموز بي خودي" أي رموز نفي الذات، يرى إقبال أن الذات يمكن أن تنمو مع بقية الذوات في داخل المجتمع.. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

أما أولئك الذين يزعمون أن فلسفة إقبال مأخوذة من الفلسفة الغربية، فإقبال يدعو لهم بالهداية، ويبين لهم أن القرآن هو مصدره الوحيد في كل ما قاله، وقولهم هذا يدل على جهلهم بالإسلام ونظامه الذي يعم الحياة

(١) ارجع إلى ديوان الأسرار والرموز – تعريب عبد الوهاب عزام – ص ٣٧.

كلها، يقول إقبال في "ديوان الأسرار والرموز" حسب ترجمة عزام[١]:

قيل: أهدى سحرَ أوربا لنا ... وبقانونِ الفرَنجِ افْتتنا[٢]

اهدِ للحقِّ الذي قد أفكا ... الذي يجهلُ ما قَدْ ملَكا[٣]

إن يكنْ قلبي غوى لا يبصِرُ ... أو سوى القرآنِ لفظي يُضْمِرُ

أنتَ يا مَنْ نورُهُ صبحُ العصورْ ... أنتَ يا عالَمَ أسرارِ الصدورْ

اهتكَنْ أسرارَ فكري وافضحَنْ ... طهرَنْ من شوكتي روضَ الزمنْ

وحياتِي اقْطعْ لأجلِ الأمَّةِ ... واكفِنِّ شرّيَ أهلَ الملَّةِ

أما السبب الثاني الذي يدعونا إلى وصف إقبال بالشاعر القرآني، فهو كثرة ما ورد في شعره من المصطلحات، والكلمات، والقصص القرآنية مثل:

ضرب كليم، شرار بولهبي، بانك إسرافيل، لاة، مناة، موسى، فرعون، الطور، يوم النشور، إبراهيم نظر، لا تحزنوا، نوح، قلم، لا إله إلا الله، وغير ذلك. وأيضاً كثرة ما ضمنه إقبال في شعره من آيات القرآن الكريم.

وإن تضمين إقبال لآيات القرآن الكريم وكلماته يدل على عمق فهم الشاعر لكتاب الله، الذي كان يتلوه آناء الليل وأطراف النهار مع التأمل في آياته، واستشعار عظمة الله عز وجل، ونحن في هذه العجالة نستعرض

---

(١) المرجع السابق – ص ١٥١.

(٢) القانون: آلة موسيقية، وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع.

(٣) دعاء إلى الله أن يهدي الذين يقولون: إن فلسفة إقبال مأخوذة من الغرب.

ديوانـاً واحداً من دواوينه، وآراءه في الحياة والكون والإنسـان، لنجد كيف تتداخـل كلمات الله بشـكل رائع مع شـعر إقبال فيتحول شـعره إلى كلمات كأنها قبس من الذكر الحكيم..

فنراه يشـيد بالأمة المسـلمة، وبالفرد المسـلم، الـذي هو في نظره "الإنسـان الكامـل"، مخاطبـاً الرسـول الكـريم ﷺ ومشـيراً إلى الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣).

وإلى الآيتين الكريمتـين: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾ (النجم).

أنـتَ في الأيـام نـورٌ وبصَـرْ ... شـاهِدٌ أنـتَ على كلِّ البشَرْ

قـولُـهُ مـا فيـهِ نـطْـقٌ عـن هـوى ... صادقٌ، ما ضلَّ يوماً أو غوى[1]

ويشير إلى الآية الكريمة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة: ٣) مع الدعوة إلى نشـر هذا الدين الكامل، الذي هو كالشـمس المشـرقة التي تبدد الظلام، يقول إقبال:

في ظـلامِ الـدهـرِ أشـرقْ للملا ... وانشرَنْ حقاً عليكَ اكتملا[2]

وأن أبناء الأمة الإسـلامية أحرار بإيمانهـم منذ أن كانوا في عالم الذر مشـيراً إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ (الأعراف : ١٧٢).

---

(١) المرجع السابق – ص ١٢٨.

(٢) المرجع السابق.

يقول إقبال:

نسلُها كالسَّرْوِ حرٌّ قد علا عهدها أحمدُ من(قالوا بلى)[١]

ونجد إقبالاً كثيراً ما يخاطب المسلم الحق، الذي آمن بربه وعرفه حق المعرفة، يطلب منه اليقظة والوعي، والصحو من نومه الطويل، وعدم الخوف، لأن الله تعالى قال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (يونس).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (آل عمران).

قوةُ الإيمانِ تحيي فاعلمَنْ وردَ "لا خوفٌ عليهمْ" فاقرأَنْ[٢]

وردُهُ "لا تحزنوا" في المأزقِ «أنتمُ الأعلونَ" تاجُ المفرقِ

وأن الأمة المسلمة لا تخاف الموت، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الإنسان).

لا تخافُ الموتَ هذي الأمةُ "نحن نزَّلنا" لديها حجةُ[٣]

ويشير إقبال إلى قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ ﴾ (البينة).

داعياً المسلم إلى التمسك بالقرآن فإنه سبيل الحرية، ولعله يشير بطرف

---

(٣) المرجع السابق – ص ٩٩.

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق – ص ١٠٨.

خفـيٍّ إلى فهم هذه الآية التي تشـير إلى أهل الكتاب، وإدراك مخططاتهم ضد الإسلام والمسلمين.

يقول إقبال:

«لمْ يَكُنْ» أمسِكْ بها واشدُدْ يَدا لتُرى في الناسِ حُرّاً أَوْحَـدا[١]

وفي مكان آخر نجد إقبالاً يوجه كلامه إلى المسـلمين في الوقت الحاضر وقـد ظللهم الغم والحزن، داعياً لهـم إلى الابتعاد عن الغم والحزن مادام الله معهم مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠).

وقـد نزلت الآيـة الكريمة علـى الرسـول ﷺ بينما كان هو وصـاحبه الصديق في غار ثور أثناء الهجرة إلى المدينة، وهما مطاردان من قبل كفار قريش.

يقول إقبال:

يـا سجينَ الغمِّ أبصرْ واسمعِ من رسـولِ اللّه "لاتحـزنْ" وعِ

ذلـكَ النـصحُ سـرى في قلبهِ فغدا الصـدِّيقُ صدِّيقاً بـهِ[٢]

ويدعـو إقبال المسـلمين إلى عـدم القنوط لأنه من صـفات الكفار، وأن طريق القنوط يؤدي إلى الموت:

---

(١) المرجع السابق – ص ١٤٨.

(٢) المرجع السابق، و: عِ: فعل أمر، ماضيه معتل الأول والآخر (وعى)، يكون الأمر منه على حرف واحد (عِ).

عُــدَّةُ المــوتِ قـنـوطٌ محبـطُ والحياةُ الحقُّ أَنْ "لاتقنطوا"[١]

يشـير إلى قولـه تعـالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر : ٥٣).

ونـراه يبعث الأمل في نفوس المسـلمين، بأن نـور الله عز وجل لن يطفئه عـدو من الأعداء مشـيراً إلى قوله تعـالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الصف).

ذلـك المـصـبـاحُ أنّـى يُـطـفـأُ قال ربي عالماً "أَنْ يطفئوا"[٢]

ويلتفت إقبال إلى المسلم المؤمن، يحثه إلى النظر في آيات الله في السماء والأرض والآفاق، ليزداد إيمانه، وتزداد معرفته.

أيها المقصودُ مِنْ أمرِ "انْظروا" كيـفَ في آفـاقـهـا لا تـنـظـرُ[٣]

يشـير إلى قولـه تعـالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت : ٥٢).

ويتمنى الشـاعر عودة ذلك المسـلم البصـير، المصـدق بما أنزل على نبيه، لا ريب في قلبه ولا انحراف:

لَـوْ يعـودُ اليـوم فينـا ذو النظَرْ مَنْ بهِ تصديقُ "مازاغَ البَصَرْ"[٤]

---

(١) (٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق – ص ٨٩، ٩٠، ١٠٩، ١٣١.

(٤) المرجع السابق – ص ١٤٨.

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (النجم).

ويلتفت شاعرنا العظيم إلى أمته الإسلامية فيراها مقطعة الأوصال مختلفة الآراء، مبتعدة عن الإسلام، سريعة السير إلى دمارها.

أمرُكُمْ قطَّعْتُمُ فَهْوَ "زُبُرْ" مُسْرعي السيرِ إلى شيءٍ نُكُرْ[1]

مضمناً قوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (المؤمنون).

وقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ (القمر).

وممن أسهم في تفريق الأمة أولئك الذين قدسوا الأوطان، وعبدوها من دون الله.. وكذلك دعاة الوطنية والإقليمية والقومية المتعصبون، كل أولئك انحرفوا عن جادة الإسلام، وطلبوا الجنة بطريق النار، فأنى لهم الوصول إليها؟! فكانت نتيجة دعوتهم الضعف، والذل والدمار، يقول إقبال:

قَدَّسوا الأوطانَ إعجاباً بها قَسَّموا الإنسانَ أسراباً بها

طلبوا الجنةَ في(بئسَ القرارْ) «فأحلُّوا قومَهمْ دارَ البَوارْ»[2]

وإقبال يستحضر قوله تعالى: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ (إبراهيم).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ (إبراهيم).

---

(١) المرجع السابق – ص ١١٤.

(٢) المرجع السابق – ص ١٠٥.

والقرآن الكريم هو المنقذ من هذا الواقع المر للإسلام والمسلمين، وهو حبل الله المتين، من تمسك به نجا، ومن أفلته وانحرف عنه هلك.. تلاه وبلغه رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين:

نحنُ طينٌ وَهْوَ قلبٌ لا جرَمْ هو "حبلُ اللهِ" "مَنْ شاءَ اعْتصَمْ"[١]

ذا بلاغٌ آخرٌ للمُرْسَلينْ قدْ تلاهُ "رحمةٌ" للعالمينْ»[٢]

مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

وهكذا أعطانا إقبال الدليل الصادق على تأثير القرآن في فكره وثقافته وفلسفته كلها، مما لا يترك مجالاً لريب مستريب أبداً.

٢ – السنة النبوية:

لقد ذكرنا عند دراستنا شخصية محمد إقبال، وإيمانه العميق، مقدار حبه للمصطفى ﷺ، هذا الحب الذي أخذ بشغاف قلبه وملأ فؤاده حتى كاد لا يتسع إلا له، وقد أتبع هذا الحب طاعته واتباع نهجه، والسير على هديه..

وكما أن إقبالاً أخذ فلسفته من القرآن الكريم فكذلك اقتبس كثيراً من أفكاره من السنة النبوية الشريفة، نورد منها على سبيل المثال لا الحصر:

---

(١) المرجع السابق – ص ١١٥.

(٢) المرجع السابق – ص ١١١.

١- نظرة إقبال إلى الزمان.

يقول إقبال في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام:

«وهذا الزمان السابح في صمت يبدو لأنظارنا البشرية في صورة تقلب الليل والنهار، يعده القرآن إحدى آيات الله الكبرى ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النور).

وهذا هو السبب في أن النبي قال: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[١].

٢- ومن مراحل تربية الذات عند إقبال الطاعة والتزام أحكام الشرع واتباع الرسول ﷺ المبين لأحكام الله..

قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (النور).

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النحل).

يقول إقبال في ديوان الأسرار والرموز:

ارجعَنْ يا حُرُّ دستورٌ قديمْ ... زينْ رجلَكَ بالقيدِ الوسيمْ

شدَّةً في شرعنا لا تشكوَنْ ... وحدودَ المصطفى لا تَعْدُوَنْ[٢]

---

(١) محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره (مرجع سابق) – ص ٧٩، وانظر مقدمة ديوان الأسرار والرموز – ص ١٦. والحديث رواه البخاري ومسلم.

(٢) الأسرار والرموز – لعزام – ص ٣٨.

وفي الديوان نفسه يبين الشاعر أن من مقومات الأمة الإسلامية اتصالها الدائم بنبيها محمد ﷺ، يقول في رسالته إلى نيكلسون: «إن في حياة الرسول ﷺ أسوة حسنة للمسلم، فقد كانت حياته خير مثال للسعي الدائم، فقد كانت حياته كلها صورة للعمل»[١].

٣- سيرة الصحابة والتابعين وأبطال الإسلام على مر التاريخ:

وإن سير الصحابة والتابعين، ومن تبعهم من رجال الإسلام، نماذج عظيمة أهل للقدوة عند إقبال: لذلك نراه يستشهد ببطولاتهم وشجاعتهم وزهدهم، وتقواهم، وجهادهم باللسان والسنان، ويذكرهم بأسمائهم في شعره، وهو يؤكد أن في سيرهم معيناً لا ينضب للقدوة الحسنة، ولإعادة مجد الإسلام من جديد.

فمن الصحابة الذين يردد أسماءهم في شعره: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وبلال، وسلمان، وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، وأبو أيوب الأنصاري، والحسين، وجعفر، ويذكر من غيرهم: الإمام مالكاً، والرازي، وهارون الرشيد، وأبا يزيد البسطامي، وكثيراً غيرهم.

ونذكر بعض الأبيات الشعرية التي يذكر فيها إقبال هؤلاء الرجال الذين بنوا حضارة الإسلام، بإيمانهم وجهادهم مهيباً بالمسلمين الاقتداء بهم.

يقول إقبال حسب ترجمة الصاوي شعلان[٢]:

لا تسَلْني الآن عن ثورتِهِ إنها ميدانُ بَدْرٍ وحُنَيْنْ[٣]

---

(١) مقدمة ديوان الأسرار والرموز – ص ٣٨.

(٢) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي – ص ٣٥.

(٣) إشارة إلى غزوة بدر (سنة ٢هـ)، وغزوة حنين (سنة ٨ هـ).

في أبـي بـكـرٍ وفي صـاحبِـهِ في عليٍّ ثمَّ في صبرِ الحسَنْ[١]

سـيفُ أيـوبَ وتـقـوى بـايـزيدْ فيهمـا مفتـاحُ كنـزِ العالمينْ[٢]

ويخاطب إقبال المرأة المسلمة، ذاكراً عمر بن الخطاب ﷺ في ديوان «أرمغان حجاز» حسب ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم نثرا[٣]:

أظْهِرَنَّ الأسحارَ من ليالينا،
وأقْرِئَنَّ بالقرآن أهل النظر.
إنكن تعرفن أن حرارة تلاوتكن
قد غيرت تقدير عمر[٤]

وفي موضع آخر يذكر إقبال: أبا بكر وعمر في وحدة العقيدة التي هي من أهم مقومات الأمة:

بَيَّضَ التوحيدُ مسوَدَّ البشَرْ فأبو بكر مؤاخ لِعمَرْ

وحدةُ القلبِ قوامُ الأمَّةِ أشرقَتْ سيناءُ من ذي الجَلْوَةِ[٥]

---

(١) وفي صاحبه: أي عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) أيوب: أبو أيوب الأنصاري ﷺ. وبايزيد: أبو يزيد البسطامي، توفي سنة ٢٠٦هـ (انظر الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي ص ٣٥).

(٣) ديوان أرمغان حجاز – ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم – ص ٢٢٠.

(٤) إشارة إلى قصة إسلام عمر ﷺ.. الذي ذهب إلى أخته غاضباً من إسلامها، ولكنه أسلم بعد أن سمع القرآن في بيتها – انظر السيرة النبوية لابن هشام ١ – ص ٣٦٤.

(٥) ديوان الأسرار والرموز (مرجع سابق) ص ٨٨. سيناء: شبه جزيرة سيناء في مصر – وهي إشارة إلى فتح مصر وانتشار الإسلام فيها.

ويذكر إقبال أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بطل فتوحات الشام، وعلي بن أبي طالب وخادمه قنبراً وأبا ذر الغفاري وبلالاً الحبشي رضي الله عنهم، وقد ساوى الإسلام بينهم:

وعبيدٌ قائد العرب الأبي ... عزمُهُ في الحربِ عن جيشٍ غنيّ
قالَ يا قومُ: ألسنا مسلمينْ ... نغمةً واحدةً في العالمينْ
من أبي ذرٍّ علت أو حيدرِ ... من بلالٍ سُمِعَتْ أَوْ قَنْبَرِ[١]

ويعود إقبال لذكر علي (ذي الفَقَار)، وكذلك خالد بن الوليد (سيف الله) بطل اليرموك[٢] مذكراً المسلمين ببطولاتهم في الشام.

يا مَنِ الجنةُ في أعطافِهِ ... ذو الفقارِ العضبُ مِنْ أسلافِهِ[٣]
خالداً صاحَبْتَ يَفْري الفيلَقا ... وعلى الشامِ نثَرْتَ الشفقَا[٤]

ويدعو إقبال الله عز وجل أن يمنحه عشق سلمان وبلال، وأن لا يحجب عنه الحب الصادق الذي منحه لصحابته:

عن فقيرٍ لا تحجِّبْ ذا الجمالْ ... عِشْقَ سَلْمانَ احْبُنا، مثلَ بِلالْ[٥]

---

(١) الأسرار والرموز لعزام – ص ١٠٠.

(٢) اليرموك: نهر في الأردن وقعت حوله معركة فاصلة بين المسلمين والروم عام ٣٣هـ. وانتصر فيها المسلمون.

(٣) ذو الفقار (يقصد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو اسم سيفه) والعضب، القاطع البتار. الفيلق: الجيش.

(٤) شام في الفارسية بمعنى الليل، والكلمة فيها تورية معناها القريب بلاد الشام. والشفق لغة: الحمرة الباقية بعد مغيب الشمس قبل حلول الظلام، ولكن الشعوب الإسلامية غير العربية تستخدم اللفظة العربية (الشفق) بمعنى الفجر الذي يزول الظلام بطلوعه.

(٥) الأسرار والرموز – ص ٦٨.

ويذكـر إقبالُ جعفر بن أبي طالب، وأبا بكر الرازي[١]، ويدعو إلى اتباع الحق الذي جاء به:

فِـكَـرُ الــرازي ونجــوى جعفرِ أيـنَ؟ والعُـرْبُ هـداةُ البشَـرِ[٢]

وبـهـذا الحـقِّ فـاشـدُدْ قلبَكا واتبعِ العُـرْبَ تُصِبْ شِرْعَتَكا

وفي أبيـات أخرى يذكر إقبال مجد الإسـلام في العصـور الزاهرة أيام الخليفة هارون الرشيد وموقفه من الإمام مالك إمام دار الهجرة:

قائدُ الإسـلامِ هـارونُ الرشيدْ مَنْ سقى نقفورَ مِنْ ماء الحديدْ

قـالَ: يـا مـالـكُ مـولى الأمَّــةِ أنــتَ يـا رونــقَ وجــهِ الملَّــةِ

أنـتَ يا بلبلَ فـردوسِ الحديثْ إنني أرغـبُ في درسِ الحديثْ

حـبـذا زهــرةُ أيــامِ الـعــراقْ حبذا حُسْـنٌ بهِ الأعــيُنُ راقْ

لِيَ في يـثربَ حـبٌّ واشـتيـاقْ أينَ مِنْ ليلي بها صبحُ العراقْ؟[٣]

وذِكْرُ إقبال الصحابة ورجال الإسلام على مر التاريخ يدل دلالة عميقة علـى مقدار تأثره ببطولاتهم وجهادهم، وهو يسـعى من نقل هذا الأثر إلى تحريك المسلم وإيقاظه، ودفع النوم الطويل عنه، ليعيد مجده وسؤدده على الأمم كما كان من قبل.

---

(١) أبـو بكر الرازي (محمد بن زكريا)، عالم وطبيب مسـلم (٢٥١-٣١٣هـ) (٨٦٥- ٩٢٥م) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي.

(٢) المرجع السابق - ص ١١٥.

(٣) المرجع السابق - ص ١٤٣ - ويثرب: اسم المدينة المنورة قبل الهجرة.

٤- الفلسفة الإسلامية والفكر الصوفي:

درس إقبال الفلسفة الإسلامية، كما هي عند الفلاسفة المسلمين أمثال الكندي[١] والرازي والفارابي[٢] وغيرهم، وكذلك اطلع على المدارس الكلامية كما هي عند علماء الكلام من الأشاعرة[٣] والمعتزلة[٤]، فضلاً عن تعمقه بالفكر الصوفي وأصوله، وخرج من ذلك كله بإيمان عميق بأن القرآن الكريم ومنهجه هو أساس الفكر الإسلامي، وأن الفلسفة اليونانية أثرت بشكل كبير في فكر من يُدعون بفلاسفة الإسلام..

يقول إقبال: «إن الفلسفة اليونانية – على ما نعرف جميعاً – كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسلام، ولكن التدقيق في دراسة القرآن الكريم وفي تمحيص مقالات المتكلمين على اختلاف مدارسهم التي نشأت مستلهمة الفكر اليوناني يكشفان عن حقيقة بارزة هي أن الفلسفة اليونانية مع أنها وسعت آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام، فإنها غشت على أبصارهم في فهم القرآن»[٥].

---

(١) الكندي: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي – توفي نحو ٢٦٠هـ (٨٧٣م) في الكوفة، ولقب بفيلسوف العرب. (انظر الأعلام للزركلي).

(٢) الفارابي: أبو نصر محمد بن محمد الفارابي يعرف بالمعلم الثاني بعد أرسطو – شرح فلسفة أفلاطون وأرسطو ودرس الرياضيات والموسيقى. ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة ٢٦٠هـ وتوفي بدمشق عام ٣٣٩هـ (٨٧٤-٩٥٠م). (انظر الأعلام للزركلي).

(٣) الأشاعرة: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري ٢٦٠ – ٣٢٤ هـ (مؤسس علم الكلام المعبر عن أهل السنة في عصره..).

(٤) أصحاب واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وهناك آراء مختلفة عن سبب هذه التسمية.

(٥) تجديد التفكير الديني في الإسلام (مرجع سابق) – ص ٨.

ويستعرض إقبال في كتابه " تجديد التفكير الديني في الإسلام "، آراء الإمام الغزالي[١] في مراحل التفكير الأولى، وقارن بينه وبين كنط الفيلسوف الألماني، وكذلك عرض آراء ابن رشد الأندلسي[٢] وتأثره بأرسطو الفيلسوف اليوناني، ودرس الأشاعرة والمعتزلة، وافتقار إدراكهم للدين على أنه مجموعة من عقائد، متجاهلين أنه حقيقة حيوية، فلم يحفلوا بأساليب إدراك الحقيقة إذا كانت لا تقبل التصور، وأرجعوا الدين إلى نسق من المعاني المنطقية.

وإقبال في دراسته للمدارس الفلسفية الإسلامية كان ناقداً أكثر منه متأثراً بأي منهم، مدافعاً عن مفاهيم القرآن والسنة.

أما التصوف والفكر الصوفي عامة، فقد كان لهما أثر كبير في فكر محمد إقبال في أدوار حياته الأولى، إذ إنه نشأ في بيت صوفي، وترعرع على الأفكار الصوفية، إلا أنه عدل عنها بعد أن وجدها مخالفة لأصول الإسلام.

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام في مقدمة ديوان «الأسرار والرموز» الذي ترجمه إلى العربية شعراً.

«رأى الصوفية في الذاتية أمراً نكراً، إذ كان التصوف بزعمهم يقصد إلى إذلال النفس وإماتتها حتى تؤهل للفناء في الله، وزاد الصوفية ثورة على شاعر الحياة والقوة، أنه عمد إلى إمام من أئمتهم وشاعر من أعاظم

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ). من أهل طوس بخراسان، لقب بحجة الإسلام ورد على الفلاسفة في كتابه: تهافت الفلاسفة، زار دمشق، وألف إحياء علوم الدين، وتوفي بطوس (انظر ترجمته في الأعلام للزركلي).

(٢) ابن رشد: أبو الوليد محمد بن رشد، ولد في قرطبة سنة ٥٢٠هـ، وكان فقيهاً وطبيباً وفيلسوفاً – شرح فلسفة أرسطو، وكان له أثر كبير في الفلسفة الأوربية. ودافع عن الفلسفة، ورد على الغزالي في كتابه «تهافت التهافت».

شعرائهم «لسان الغيب حافظ الشيرازي»[١] فحط من شأنه، وغض من طريقته، ونهى الناس عنها، وحذرهم منها».

وكذلك خالف إقبال محيي الدين بن عربي[٢] الملقب بالشيخ الأكبر، وغلطه وقال: إن آراءه غير إسلامية.

وعندما نشر إقبال ديوانه " أسرار خودي " أي أسرار الذات، وتعرضه لحافظ الشيرازي بالنقد، هاجمه الصوفية بشدة، وأجاب إقبال المعترضين، منها قولُه في رسالة إلى الشيخ " حسن نظامي الدهلوي " :

«إني بفطرتي وتربيتي أنزع إلى التصوف، وقد زادتني فلسفة أوروبا نزوعاً إليه، فإن هذه الفلسفة في جملتها تنزع إلى وحدة الوجود، ولكن تدبر القرآن المجيد ومطالعة تاريخ الإسلام بإمعان عرفاني غلطي، وبالقرآن عدلت عن أفكاري الأولى، وجاهدت ميلي الفطري، وحِدتُ عن طريق آبائي.

إن الرهبانية ظهرت في كل أمة وعملت لإبطال الشريعة والقانون، والإسلام في حقيقته هو دعوة إلى مخالفة الرهبانية.

والتصوف الذي شاع بين المسلمين – أعني التصوف العجمي – أخذ من رهبانية كل أمة، وجهد أن يجذب إليه كل نحلة، حتى القرمطية[٣] التي قصدت إلى التحلل من الأحكام الشرعية.

---

(١) حافظ الشيرازي – الشاعر الصوفي الفارسي المعروف.

(٢) ولد في "مرسية" بالأندلس سنة ٥٦١هـ، وتوفي سنة ٦٢٨هـ، وله مقام في دمشق، نادى بوحدة الوجود المخالفة للعقيدة الإسلامية.

(٣) القرامطة: تنسب إلى حمدان قرمط – ظهرت هذه الدعوة عام ٢٧٨ هـ (ارجع إلى فضائح الباطنية للغزالي – القاهرة ١٩٦٤م).

إن حالة السُكْر[١] (في اصطلاح الصوفية) تنافي الإسلام وقوانين الحياة، وحالة الصحو هي الإسلام، توافق قوانين الحياة، وإنما قصد الرسول ﷺ إنشاء أمة صاحية، ولهذا نجد في صحابة الرسول ﷺ الصديق والفاروق، ولا نجد حافظ الشيرازي».

ويقول في رسالة أخرى إلى أحد المعترضين:

«الحق أن التماس معاني باطنة في قانون أمة؛ هو مسخ لهذا القانون كما يعلم من سيرة القرامطة، ولا يختار هذه الطريقة إلا أمة في نظرتها الخنوع والذلة. وفي شعراء العجم جماعة في طباعهم الميل إلى الإباحة، ولقد افتنَّ هؤلاء في إبطال شرائع الإسلام بأساليب عجيبة خداعة».

ويقول في رسالة أخرى إلى هذا المعترض نفسه:

«كل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي، وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين بعد غارات التتار تتبدل أنظارهم وتجمل الاستكانة في أعينها، وتركن إلى ترك الدنيا، وفي هذا الترك تخفي ضعفها وهزيمتها في تنازع البقاء»[٢].

وإقبال في آخر ديوان له وهو " أرمغان حجاز " أي هدية الحجاز الذي نشر بعد وفاته وفيه آخر أفكاره، نجده ينقد التصوف نقداً لاذعاً لدعوته إلى الرهبانية وترك الحياة، ويعده سر تخلف المسلمين.

يقول إقبال حسب ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم للديوان نثراً:

«متاع الشيخ ليس إلا أساطير قديمة،

---

(١) السكر: من أحوال الصوفية، فيه يغيبون عن الوعي ويزعمون الفناء في الذات الإلهية.

(٢) ديوان الأسرار والرموز – المقدمة – ص ١١ إلى ١٣.

كلامه كله ظن وتخمين،

حتى صار إسلامه زناراً،

وحين صار الحرم ديراً أصبح هو من براهمته».[١]

ويبين إقبال في هذا الديوان أن اتجاه المسلمين إلى طريق التصوف والالتجاء إلى مقامات الأولياء كان في عصور الضعف والذلة :

«اصطف الفقراء بالمسجد،

ومزقوا جيوب الملوك،

حين خبت تلك النار داخل الصدور

بدأ المسلمون يزحفون إلى المقامات».[٢]

ويطلب إقبال التحرر من قيد الصوفي والملاّ[٣]:

«أنت أسير في قيد الملاّ والصوفي،

أنت لا تأخذ الحياة من حكمة القرآن.

ليس لك بآيات القرآن شأن

إلا أن تموت بسهولة بسورة (يس)».

ويتهكم إقبال من الصوفي والملاّ:

«فقد بلغوا رسالة الله،

لكن تأويلاتهم أوقعت فيَّ الحيرة».[٤]

---

(١) محمد إقبال – وديوان «أرمغان حجاز» (مرجع سابق) – ص ١٢٩ – ١٣٠.

(٢) المرجع السابق – ص ١٣.

(٣) يقصد إقبالاً بالملاّ : الشيخ القليل الفقه بالدين.

(٤) إقبال وديوان «أرمغان حجاز» (مرجع سابق) – ص ١٣٣.

ومع ذلك فإن إقبالاً بقي متشرباً بالفكر الصوفي الذي يدعو إلى إثبات الذات لا إفنائها، والذي لا يخالف الكتاب والسنة. ويتمثل هذا الفكر في الشيخ جلال الدين الرومي[١] الذي يعده إقبال أستاذه الروحي ومرشده إلى الحق. وقد اقتبس إقبال كثيراً من أفكاره وآرائه في الوجود والروح.

وتعدى ذلك إلى اقتباس فنه الشعري، إذ إن أكثر قصائده في "زبور عجم" و"بيام الشرق" مكتوبة بأسلوب "المثنوي" للرومي[٢].

وكذلك فإن ديوان "الأسرار والرموز" قد كتب في وزن وطريقة أسلوب "المثنوي" نفسه. وقد افتتح إقبال مقدمة "أسرار خودي" بأبيات من ديوان "شمس تبريز" للرومي:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى ... له في كل ناحية مجالُ

يقول: مللت أنعاماً وبُهْما ... وإنساناً أريدُ فهل يُنالُ[٣]

ويصحب إقبالٌ في ديوانه "جاويد نامة" الرومي[٤] إلى الكواكب مرشداً وهادياً إلى السبيل، وكذلك في بال جبريل (جناح جبريل) في

---

(١) جلال الدين الرومي: جلال الدين محمد بن الحسين البلخي البكري، نظم المثنوي، وقد ترجمه عبد الوهاب عزام إلى العربية، وهو من كبار الصوفية، وإليه تنسب الطريقة المولوية في كل من تركيا وسورية (٦٠٤ – ٦٧٢هـ).

(٢) انظر «إقبال والرومي" لجناب سيد يونس شاه. وكذلك "إقبال وديوان أرمغان حجاز» (مرجع سابق) – ص ٤٧.

(٣) ديوان الأسرار والرموز – (مرجع سابق) ص ٣.

(٤) ديوان جاويد نامة – ترجم عدة ترجمات إلى اللغة العربية – انظر تفصيل ذلك عند البحث في دواوين إقبال.

قصيدة: المرشد الرومي والمريد الهندي[١] يعترف إقبال بأن الرومي مرشد وفيلسوف.

ويلتقي إقبال مع الرومي في المفاهيم الآتية:

١- الإنسان الكامل.

٢- العشق.

٣- تحقيق الخلود.

٤- العلاقة بين الذات المفردة المقيدة والذات المطلقة.

ويعد الشيخ أبو الحسن الندوي ديوان «المثنوي المعنوي» للرومي من العوامل المؤثرة في تكوين عقلية إقبال وتوجيه رسالته، إذ كان إقبال يواجه نفس ما واجهه الرومي من طغيان العقل على الروح والعاطفة[٢].

فإقبال واجه «التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحية والخلقية، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية والمبادئ الخلقية وما بعد الطبيعة، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية»[٣]. «وقد قضى إقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان: عامل

---

(١) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي – ص ١٠٢.

(٢) يقول الندوي: «كتب الرومي " المثنوي " في ثورة وجدانية ونفسية شديدة، ضد الموجة العقلية الإغريقية التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره، وقد انتصر فيها للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً، وانتصر فيها للعقل والروح، والحب الصادق، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية في الشرق الإسلامي " انظر روائع إقبال للندوي – ص ٥٢.

(٣) المرجع السابق.

العقل، وعامل القلب. وقام صراع بين عقله المتمرد وعمله المتجدد، وقلبه الحار الفائض بالإيمان. وفي هذا الاصطراع الفكري والاضطراب النفسي ساعده «المثنوي» مساعدة غالية، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً، وحل به كثيراً من ألغاز الحياة[١].

٥- الأدب الإسلامي عامة والعربي خاصة:

درس إقبال العربية على يد أستاذه الأول سيد مير حسن[٢]، وقد اشتغل بتدريس العربية مدة، وتمنى لو كان في قدرته أن ينظم الشعر بلغة الضاد، حتى يفهمه العرب، وينقل أفكاره لهم وبلسانهم. وفي ديوان «أرمغان حجاز» يدعو الله أن يهبه النطق العربي ليظهر به أسرار الروح. يقول إقبال حسب ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم:

«لقد فتحت الحياة على يمينه -أي المسلم-.

وبنيت له حكمة الأمس والغد،

فأعط هذا الأعجمي النطق العربي

لكي يستطيع أن يظهر بجلاء أسرار الروح».[٣]

ولا عجب من دراسة إقبال اللغة العربية، إذ هي اللغة الجامعة للشعوب الإسلامية، ولغة القرآن، ولغة رسوله المصطفى ﷺ الذي امتلأ قلبه في حبه وحب أرضه التي داس عليها، وما على هذه الأرض من صحراء ونخيل،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سيد مير حسن: أستاذ اللغة الفارسية والعربية في مدرسة البعثة الأسكوتية في سيالكوت في عهد إقبال. (سيالكوت المدينة التي نشأ فيها إقبال وهي تقع في الطريق بين لاهور وإسلام آباد).

(٣) محمد إقبال وديوان أرمغان حجاز (مرجع سابق) - ص ١٩٣.

وواحات وجمال وقوافل، وجبال ووديان، كل هذه المعاني صورها في شعره، وحنَّ إلى رؤيتها والعيش في ربوعها.

وقد تردد في شعر إقبال كثير من الشعراء الجاهليين، واستشهد بأشعارهم أمثال امرئ القيس[١] وزهير بن أبي سلمى[٢] وعمرو بن كلثوم[٣].

وكذلك شعراء العصر الإسلامي أمثال كعب بن زهير [٤]، وقيس بن الملوح[٥] والمتنبي[٦]، والمعري[٧]، والبوصيري[٨] وغيرهم.

ونعرض بعض النماذج الشعرية التي تأثر فيها إقبال بالشعر العربي عامة، وضمن قصائده بأبيات شعرية كاملة من الشعر الجاهلي والإسلامي.

---

(١) امرؤ القيس: هو الملك أبو الحارث حندج بن حجر الكندي، من فحول شعراء الجاهلية ومن أصحاب المعلقات.

(٢) زهير بن أبي سلمى: شاعر جاهلي اشتهر بالمديح والحكمة، توفي قبل البعثة النبوية بسنة، وهو من أصحاب المعلقات.

(٣) عمرو بن كلثوم: هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبي، شاعر جاهلي ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو من أصحاب الملعقات.

(٤) كعب بن زهير: هو كعب بن زهير بن أبي سلمى أحد فحول الشعراء المخضرمين، ومادح النبي الأمين في قصيدته التي اشتهرت بالبردة. توفي سنة ٢٤ هـ.

(٥) قيس: من الشعراء العذريين، اشتهر بالغزل العذري – عاش في العصر الإسلامي الأول.

(٦) المتنبي: هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي المتنبي الشاعر الحكيم وصاحب الأمثال السائرة – ولد ٣٠٣ هـ، وقتل عام ٣٥٤ هـ.

(٧) المعري: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي – الشاعر المعروف ولد بمعرة النعمان في سورية عام ٣٦٣هـ، ومات سنة ٣٣٩ هـ.

(٨) البوصيري: هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري المصري صاحب البردة والهمزية – (٦٠٨ – ٦٩٦هـ) .

ففي قصيدة لإقبال يبدأ فيها ببيت من معلقة[١] عمرو بن كلثوم يقول:

«صددت الكأس عنا أم عمرو

وكان الكأس مجراها اليمينا

فلو كان هذا طبع الصداقة

فحطي الكؤوس والأقداح بجوار الحرم»[٢]

وامرؤ القيس يستخدم في شعره قنديل الرهبان يقول:

تضيءُ الظلامَ بالعِشاءِ كأنهُ منارةُ مُمسي راهبٍ متبتلِ[٣]

ويقول إقبال مستخدماً قنديل الراهب أيضاً:

«إن ليل هذا الجبل والوادي صدر مظلم،

ليس فيه طائر ولا موج ماء.

صار مضيئاً من قنديل الراهب

حتى كأنك تظن أنه الشمس».[٤]

---

(١) المعلقات – هي قصائد شعرية طويلة، لعدد من شعراء الجاهلية، سبع متفق عليها، وثلاث مختلف فيها، ومطلع معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

(٢) إقبال وديوان أرمغان حجاز (مرجع سابق) – ص ١٧٦. ويرمز إقبال بذكر الحرم إلى الهدى والإسلام.

(٣) يقول: تضيء محبوبتي الظلام كأنها منارة الراهب في المساء، والبيت من المعلقة المشهورة التي مطلعها: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٤) المرجع السابق – ص ٨٥.

ويقول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ومن لا يذدْ عن حوضِهِ بسلاحِهِ يهدَّمْ،ومن لايظلمِ الناسَ يُظْلمِ[١]

ويقول إقبال في ديوان «بس جه باید کرد أي أقوام شرق» أي «ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق» ينصح العرب بالتخلص من عبودية الإفرنج:

«لو أردت النجاة من خداعه فأبعد جماله عن حوضك».

والشاعر كعب بن زهير يقول في مدح الرسول ﷺ:

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ متيمٌ إثْرها لم يُفْدَ مكبولُ[٢]

إن الرسولَ لسَيْفٌ يُسْتضاءُ بهِ مهندٌ من سيوف اللّه مسلولُ

وإقبال في ديوانه "الأسرار والرموز" يقول حسب ترجمة عزام:

نظم الدرَّ منيراً في ثناهْ من سيوفِ الهندِ سيفاً قد دعاهْ[٣]

كعبٌ الشاعرُ في خيرِ العبادْ أنشدَ المِدْحةَ من (بانتْ سعادْ)

وفي ديوان «أسرار خودي» (أسرار الذات) يذكر إقبال البوصيري صاحب قصيدة البردة فيقول:

---

(١) الذود: هو الدفع. ومن لا يظلم. يريد به أن الناس طبعوا على ظلم من لا يقدر على الظلم، يعني من لم يدفع الظلم بمثله يظلم. وهذا مخالف للتصور الإسلامي، الذي يقرر أن الإنسان فطر على الخير والإيمان. ومطلع معلقة زهير هو:

أمن أمِّ أوفى دِمنة لم تكلَّمِ بحومانة الدرّاج فالمتثلَّمِ

(٢) بانت سعاد: فارقت. متبول: الذي أسقمه الحب. ومكبول: مقيد.

(٣) ديوان الأسرار والرموز لعزام – ص ١٠٣.

واهبي عودَ سُلَيمي كَرَما والبوصيريُّ ببردٍ أُكْرِما[١]

وسلمى، وسليمى معروفة في الشعر العربي، كثيراً ما يتغزل بها الشعراء، وإقبال في ديوانه "أسرار خودي" يمدح الأدب العربي ويدعو إلى التمسك بالإسلام فيقول:

من بفكرٍ صالحٍ في الأدبِ ارجعَنْ يا صاحِ شطرَ العربِ
فسُلَيمى العربِ يا صاح اعْشَقا لترى صبحَ الحجازِ ائْتَلقا
من حَرورِ البيدِ فاشربْ يا رفيقْ واشربَنْ من تمرِها الراحَ العتيقْ[٢]

ويورد إقبال بيتاً من البردة في ديوانه «رموز بي خودي» أي «رموز نفي الذات» وهو:

لما دعا اللهُ داعينا لطاعتِهِ بأكرمِ الرُّسْلِ كنا أكرمَ الأممِ

في مقدمة حاشية قصيدته «الرسالة» والتي فيها هذان البيتان:

ختمَ اللهُ علينا شرعتَهْ وعلى المرسَل فينا بعثتَهْ
محفلُ الأيامِ منا يبسمُ خُتِمَ الرسلُ بنا والأممُ[٣]

ويقول البوصيري في البردة:

---

(١) المرجع السابق – ص (١٥١) عود سليمى: يراد به قوة العرب في الأدب والشعر، البوصيري: ناظم قصيدة البردة الشهيرة.

(٢) المرجع السابق – ص ٣٦.

(٣) المرجع السابق – ص ٩٧.

أحــلَّ أمــتَــهُ في حــرزِ ملـتِـهِ كالليثِ حلَّ مع الأشبالِ في أَجَمِ[١]

فأشار إليه إقبال في " روموز بي خودي "

أمــةٌ في حــرزِ ســورِ الحــرمِ في حفاظٍ مثلِ أُسْـدِ الأَجَـمِ[٢]

ومن الشعراء العرب الذين ذكرهم إقبال في شعره قيس بن الملوح، شاعر الحب العذري الذي هام بابنة عمه ليلى، وقد وظف إقبال الصـورة الشـعرية لقيس وهيامه بابنة عمه توظيفاً جديداً، يخدم فكرته ورسالته الإسلامية.

فمثلاً حينما يصـف الحياة المعاصرة وخلوها من القلب والعاطفة، نراه ينوح كما ينوح قيس حين يخلو المحمل[٣] من ليلى:

صـدرُ عصري مـا بقلبٍ يؤهلُ نـوحُ قيسٍ حين يخلو المَحْمَلُ[٤]

وفي صـورة أخرى يبين واقع المسلمين، وعدم نهوضهم بالعمل، ليصلوا إلى هدفهم وذلك بعرض صورة قيس الطائف بالصحراء يبحث عن ليلى:

طافَ قيسٌ في الصحارى وَلَهاً قـاصـداً لـيـلاهُ يـرجـو وصلَهـا
مـا اقتفينا في الصحاري أثراً مـنـذُ ليلانا أقـامـتْ في القُـرى
إنمـا المقـصـودُ روحُ العـمـلِ كيـفُـهُ والـكـمُّ مـنـه تجْـتـلـي[٥]

(١) الحرز: الموضع الحصين – الأجم: مفردها أجمة وهي مسكن القصب.

(٢) المرجع السابق – ص ٩٦.

(٣) المحمل: الهودج يوضع على الجمل لتركب فيه النساء.

(٤) المرجع السابق – ص ٨٨.

(٥) المرجع السابق – ص ١٢٥ – ١٢٦ تجتلي: تتبين للعمل كيفه وكمه من مقصوده.

ويصور إقبال في ديوانه (رموز بي خودي) المسلم العاجز، وقد ملأ اليأس قلبه، بينما الآخرون بلغوا أهدافهم في التقدم والرقي، مستخدماً صورة قيس التائه في الصحراء يبحث عن ليلى عاجزاً يائساً:

بلَّغَ السعيُ الرفاقَ المنزلا أنزلوا ليلى وحطّوا المحْمَلا

وبقيتَ اليومَ قيساً مُبْلِساً في الصحارى عاجزاً مُسْتيئساً[١]

وإقبال في "جاويد نامة" أي "رسالة الخلود" نجده تأثر بشكل عميق بوقائع إسلامية وأعمال أدبية إسلامية وعربية ليس في المضمون، فالمضمون إسلامي لا شك في ذلك.. ولكن بالصورة الفنية المعبرة.. والقالب الفني الجميل.

ثانياً: المصادر الغربية:

١ - الفلسفة اليونانية:

إن اطلاع إقبال على الفلسفة الغربية، وجذورها الأولى في الفلسفة اليونانية أمر لا شك فيه ولا غرابة؛ لأن طالب الفلسفة لابد له أن يطلع على تاريخ الفلسفة في جميع العصور، وأن يطلع على جميع الحدوس الفلسفية، في الكون والإنسان والحياة، ولكن هذا لا يدعو إلى القول بتأثر إقبال بالفلسفة اليونانية. وإنّ تشابه بعض التعابير، أو الأفكار عند فيلسوفين ليس دليلاً على تأثر أحدهما بالآخر.

فقد رأى بعض الباحثين[٢] أن هناك شبهاً بين الإنسان الكامل عند

---

(١) المرجع السابق – ص ١٣١.

(٢) انظر: -THOUGHTS & REFLECTON IQBALS.A.WAHID. SH.M.ASHRAF LAHORE 1973

إقبال، والإنسان الكامل عند أرسطو طاليس[١]، وذلك من خلال تشابه بعض العبارات بينهما، فمثلاً يقول أرسطو طاليس:

إنه يجب أن يكون (أي الإنسان الكامل) في خدمة الناس، ورغم هذا يكون خجلاً حين تؤدي إليه خدمة، ويقول إقبال: «الحذرَ من منَّة الغير، الحذرَ».

ويقول أرسطوطاليس: «إن شجاعته رزينة مرضية، صوته عميق، حديثه موزون»، ويقول إقبال: «رقيق في حديثه قوي في عمله».

هذه هي العبارات التي تشير إلى تأثر إقبال بأرسطوطاليس عند من درس إقبال، وهي لا تدل لا من قريب ولا من بعيد إلى ذلك.

مع العلم أن إقبالاً اقتبس تصوره عن الإنسان الكامل من التصور الإسلامي، ويشير دائماً إلى أن المسلم هو الإنسان الكامل، وإن صفات الشجاعة والاتزان والرصانة والصوت الموزون ورقة الحديث وقوة العمل، قيم إسلامية أشار إليها الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة[٢].

٢ - جوته: (١٧٩٦ – ١٨٢٣م):

أعجب إقبال بجوته الشاعر الألماني وبأفكاره، بعد مطالعة ديوانه «ديوان المغرب» الذي ألفه قبل مئة عام من نشر إقبال لديوانه " بيام مشرق " أي "رسالة المشرق"[٣].

---

(١) أرسطو طاليس فيلسوف يوناني (٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم.

(٢) قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً» رواه الطبراني وأحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات. وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق " رواه مسلم. والأحاديث في هذا الباب كثيرة – ارجع إلى شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة للدكتور: محمد علي الهاشمي. وبعض هذه الصفات في القرآن الكريم كما في وصايا لقمان عليه السلام لابنه.

(٣) تعريب الدكتور عبد الوهاب عزام.

إذ إن جوته فضل القلب على العقل، وحاول التوفيق بين أفكار الشرق وأفكار الغرب، ونقد الغرب الذي فقد قلبه روحانيته وإنسانيته، وانغمس في المادة، ومدح الشرق وروحانيته وما فيه من أخلاق إنسانية. ودعا شعوب الشرق بعدم الانخداع بالغرب، وبمعرفة ذاتها والتمسك بدينها وروحانياتها.

وقد كتب جوته في أعلى الديوان الآية القرآنية: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ (البقرة : ١١٥).

وبعد مطالعة إقبال لديوان جوته ينظم ديوانه، «بيام مشرق» الذي كتب تحت عنوانه: «جواب ديوان الشاعر الألماني جوته» يؤكد كثيراً من أفكاره. وكتب في مقدمته النثرية: «نظمت (بيام مشرق) لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه: «هذه باقة من القصائد يرسلها المغرب إلى المشرق». ويتبين من هذا الديوان أن المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صور المشرق»[١].

ويظهر من هذا الديوان أيضاً أن إقبالاً قرأ قصة «فاوست» لجوته أيضاً، وقد أشار للقصة في مقطوعة له في «بيام مشرق» عنوانها «جلال وجوته» وكتب في الحاشية: «شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة «فاوست»[٢]، وفي هذه القصة بيّن الشاعر درجات تطور الإنسان في إطار من رواية قديمة عن العهد الذي كان بين الدكتور فاوست والشيطان، وقد بلغ فيها الفن درجة لا يدركها الخيال[٣].

---

(١) "بيام مشرق" – ديباجة ص ١، وقد ترجمها عزام إلى العربية، انظر رسالة المشرق ص١.

(٢) "فاوست" نقلها من الألمانية إلى العربية محمد عوض محمد – طبع مصر سنة ١٩٢٩م.

(٣) "بيام مشرق" – ص ٢٤٦، وانظر الترجمة العربية.

ولكن هل تأثر إقبال في ديوانه جاويد نامة بـ فاوست؟ يقول راشد الحيدري في مقاله محمد إقبال والثقافة الألمانية:

«وكان تأثير فاوست في روح إقبال أعمق مما كان تأثير كتاب من الأدب الأوروبي، وظن أن هذا الكتاب الشهير: يصور المثل الأسمى للهمم الروحية التي تختص بها الملة الألمانية، وأنه أقرب إلى الروحانية من الإنجيل»[١].

والواقع أن إقبالاً لم يتأثر بـ «فاوست» من حيث المضمون أو الموضوع، سوى بعض المشاهد من حيث القالب الفني فقط.. ونحن مع الدكتور محمد السعيد جمال الدين حيث يقول:

«والواقع أننا إذا أمعنا النظر في هذا القول فسنجد الحيدري يقول: «إن إقبالاً تأثر عن طريق جوته بالنبي ﷺ وهذا رأي غير مقبول، فمن المعروف أن تأثر إقبال بالنبي هو تأثر مباشر، وأن جوته نفسه تأثر في كثير من آرائه بالأدب الإسلامي، فالفكرة إسلامية وليست أجنبية، ولا يستقيم أن نقول: إن إقبالاً استقى أفكاراً إسلامية من مصادر غربية[٢].

٣ – ليبنتز[٣]:

يرى الدكتور مهدي علام أن إقبالاً يوافق ليبنتز – الفيلسوف الألماني –

---

(١) مجلة «فكر وفن»، العدد الثاني، العام الأول، ١٩٦٣م.

(٢) رسالة الخلود أو " جاويد نامة " لإقبال – ص ٤٨.

(٣) ليبنتز: جوتفريد فلهام (١٦٤٦ – ١٧١٦ م) فيلسوف ألماني – وكان رياضياً وعالماً من الطراز الأول. قال بالجوهر الفرد أو الموناد أو الجوهر الروحي – انظر تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص ١٢٣ – ١٢٤.

عندما قال " بالموناد " أو الجوهر الروحي، وأن كل موجود حي، وليس بين الموجودات من تفاوت في الحياة إلا بالدرجة تبعاً لمبدأ الاتصال الذي يستبعد الانتقال الفجائي، وهذا التفاوت بالدرجة هو بحسب درجة تميز الإدراك. والدرجات أربع: مطلق الحي، أي ما يسمى جماداً، والنبات، فالحيوان، فالإنسان[١].

يقول إقبال: «كيف تنشأ النفس في داخل النظام الزماني، والمكاني؟ إن تعاليم القرآن واضحة كل الوضوح في هذا المعنى إذ يقول:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون).

وهذا «الخلق الآخر» للإنسان يتكامل على أساس الجسم المادي، وهو مجموعة من وحدات روحية، بواسطتها تؤثر فيَّ دوماً روح أعمق فتمكنني من بناء وحدة من التجربة منسقة»[٢].

ويقول إقبال أيضاً معرفاً المادة «هي طائفة من نفوس أو ذرات دنيا، تتوالد عنها نفس أو ذات أعلى رتبة، عندما يبلغ ارتباط هذه الأنفس وتفاعلها درجة معينة من التناسق»[٣].

---

(١) انظر تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال – هامش ١١٩ – وتاريخ الفلسفة الحديثة – ص ١٣٤.

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال – ص ١١٩.

(٣) المرجع السابق – ص ١٢١ – ١٢٢.

يقول الدكتور مهدي علام: «يبدو في هذا القول، تأثير ليبنتز في إقبال قوياً، فالجوهر الفرد أو الموناد عند ليبنتز قوة متجهة إلى الفعل بذاتها حاصلة على التلقائية، أو هي حياة ونزوع، ولها ضرب من الإدراك»[١].

والذي أراه أن إقبالاً أخذ نظريته هذه من القرآن، وليس من ليبنتز، وقد التقى معه في تفسير المادة فقط. مع العلم أن «ليبنتز» أخذ بعض آرائه من النصرانية، وأصول الدين النصراني إلهي وليس وثنياً...

وتلتقي النصرانية مع الإسلام في أصول الدين، أما الآيات القرآنية التي تشير إلى وجود الروح والإدراك في المادة، أو أن المادة مؤلفة من ذرات روحية فيمكن أن نذكر منها ما يأتي:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ٧٤).

وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء)[٢].

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الرعد : ١٣).

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنبياء).

والآيات في الموضوع كثيرة.

---

(١) انظر هامش المرجع السابق – ص ١٢١ – وكذلك تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص ١٢٣ – ١٢٤.

(٢) انظر تفسير ابن كثير – والآثار النبوية في هذا الباب.

٤ – نيتشه[١]:

رأى بعض الباحثين أن إقبالاً متأثر إلى حد كبير بنيتشه في نظريته عن الإنسان الأعلى «السوبر مان». ويقول آخر[٢] «إن كل من تعمق في دراسة فكر إقبال لاحظ تأثير نيتشه على فكره، كما أن إقبالاً كان يردد اسمه حتى عام ١٩١٨م، أما أن إقبالاً متأثر بنيتشه في نظرية الإنسان الكامل فقد رد هو بنفسه على هذا القول في رسالته إلى نيكلسون فيقول:

«لقد علمت من الخطاب الذي كتبه إليَّ شفيع[٣] ما سرني وأثلج صدري، فقد لاقت ترجمة «أسرار خودي» الإنكليزية رواجاً وترحيباً، إلا أن بعض الإنكليز قد أساؤوا الفهم، وقالوا بتشابه أفكاري وأفكار نيتشه، فهناك فرق بين نظريتي عن الإنسان الكامل وأفكار نيتشه عن «السوبرمان» إلا أنه لسوء الفهم خلط بعضهم بينهما، وجعلوهما نظرية واحدة، لقد كتبت مقالاً قبل عشرين سنة عن «الإنسان الكامل» ويومها لم أكن قد سمعت عن نيتشه ولم أر مؤلفاته، ولقد أضفت هذا المقال إلى بحثي المقدم للدكتوراه «فلسفة عجم» وعنوانه «تطور ما وراء الطبيعة في إيران»[٤].

---

(١) فريدريك نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠م) فيلسوف ألماني، وهو أديب مطبوع حشر في زمرة الفلاسفة لأنه فكر وكتب في الإنسان ومصيره والأخلاق وقيمتها، وأخذ أركان مذهبه من شوبنهور وفاجنر. ونظرية العود الأبدي معروفة في الثقافة اليونانية (انظر تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ص ٣٨٥ – ٣٩١).

(٢) هو الدكتور ظ – أنصاري في (إقبال كي تلاش) ص ٦٢ – ٦٣.

(٣) الأستاذ محمد شفيع كان عميداً للكلية الشرقية بلاهور.

(٤) ارجع إلى: محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره – د. عزام – ص ٧١.

فضلاً عن أن مواصفات «الإنسان الكامل» عند إقبال تختلف عن الإنسان الأعلى أو السوبرمان عند نيتشه. فالإنسان الكامل عند إقبال يشرحها الأستاذ الندوي في كتابه الرائع «روائع إقبال» فيقول:

«إن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلاً جديداً شبابه طاهر نقي، ضَرْبه موجع قوي، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل، هذا مع الأعداء وذاك مع الأولياء، آماله قليلة، ومقاصده جليلة، يجمع بين جلال إيمان الصدِّيق، وقوة علي، وفقر أبي ذر، وصدق سلمان، يصطاد الأسود، ويباري الملائكة، ويتحدى الكفر والباطل»[١].

وهذه الصفات كلها مقتبسة من القرآن، وسنة النبي ﷺ، وسيرة الصحابة رضي الله عنهم.

ويقول الندوي: «إن محمد إقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد الإنسان المنشود، وعرفه واتصل به، وتغنى في شعره بإنسانيته وشخصيته.

إن الإنسان الكامل الذي وجده إقبال، فوجد فيه ما كان ينشده من معاني الإنسانية والقوة والحياء والجمال والكمال هو المسلم، فهو الضالة المنشودة، والصورة الكاملة للإنسانية»[٢].

فأين هذا من الصورة التي يرسمها نيتشه للإنسان الأعلى (السوبرمان)!؟، فهو يحب الخطر والاضطراب والصداقة والقدرة والذكاء.

---

(١) روائع إقبال للندوي – ص ٦٤ – ٦٥.

(٢) المرجع السابق – ص ٨٠ – ٨١.

وبالنسبة للمقاصد الخلقية يحب الحرية والعمل، وهو معجب بنفسه، معتز بكرامته، ولكن من دون مبدأ أخلاقي، وإنسان نيتشه لا يعلم بقوانين المساواة والعدل، ولا يعرف معنى الرحمة والشفقة، فضلاً عن إلحاده بالله تعالى.

أما فلسفة الذاتية عند إقبال فهي فلسفة إسلامية خالصة، ليست مقتبسة من نيتشه ولا من غيره.. كما بين ذلك إقبال في رسالته إلى نيكلسون، بل إن إقبالاً يعترض على نيتشه في كثير من آرائه، يقول إقبال: «أرى أن الحقيقة هي مجموعة الشخصيات أو الذاتيات، وأن تأليفها الاجتماعي ينشأ من الجلاد، ومن هذا الجلاد[١] ينشأ انتظام وائتلاف آخر. هذا الجلاد ضروري للبقاء الشخصي وهو أعلى درجات الحياة.

نيتشه ينكر البقاء الشخصي، وغلطه في هذا نتيجة غلطه في تصور الزمان أو الدهر، هو لم يبحث في مسألة الزمان من الجانب الإنساني.. وأنا على خلافه أعتقد أن البقاء الشخصي أعظم الآمال، ولابد له من الجد والجهد الكاملين، لهذا دعوت إلى الحركة والجد والكدح وكل ضروب العمل، بل الحرب، حتى تستحكم الذات، ولهذا نهيت كل النهي عن جمود الصوفية وسكون الرهبان»[٢].

---

(١) الجلاد: من الجلد: أي الصلابة. وفي ترجمة أخرى للرسالة ذكر المترجم كلمة الصراع أو النزاع (انظر د. سمير عبد الحميد إبراهيم – دراسة ديوان الأسرار والرموز).

(٢) ديوان الأسرار والرموز – لعزام – ص ٢٥.

٥ – برغسون[١]:

يتفق إقبال مع برغسون في نقطتين:

الأولى: تتعلق بالمعرفة، وهي أن الحقائق لا يصلها الإنسان إلا عن طريق الإلهام أو الحدس أو البداهة، وهو المعرفة المباشرة.

والثانية: في مفهوم الزمن، وأنه حقيقة مستقلة.

أما النقطة الأولى والمتعلقة بالحدس كطريق للمعرفة، فقد سبق الغزاليُّ وجلالُ الدين الرومي برغسون في هذا، وحتى الفيلسوف الألماني كنط[٢] قال بعدم استطاعة العقل الوصول إلى الحقائق بما وراء الطبيعة، يقول إقبال:

«على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التي نهض لها الغزالي تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها كنط في ألمانيا في القرن الثامن عشر»[٣]. هذه الدعوة تتجلى بقصور العقل الإنساني في الوصول إلى الحقائق الدينية، فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلي من قبل، وصدق عليه القول بأنه من أجل نعم الله على وطنه[٤].

---

(١) هنري برغسون (١٨٥٩ – ١٩٤١م) فيلسوف فرنسي، ولعله أكبر فيلسوف في النصف الأول من القرن العشرين، يقوم مذهبه على أن الصيرورة أو التغيير هو الحقيقة الوحيدة (انظر تاريخ الفلسفة الحديثة من ٤١٧ – ٤٧٧ والموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١١).

(٢) أمانويل كنط (١٧٢٤ – ١٨٠٤م) فيلسوف ألماني له أثر عظيم في الفلسفة الحديثة أو الأخلاق، امتاز مذهبه بنقد العقل وبيان قصوره وهو القائل: «شيئان يملآني إعجاباً؛ «السماء ذات النجوم فوق رأسي والقانون الخلقي في نفسي» (انظر الفلسفة الحديثة – يوسف كرم ١٩٥ – ٢٤٥).

(٣) تجديد التفكير الديني في الإسلام – لإقبال – ص ١١.

(٤) المرجع السابق – ص ١١ أيضاً.

ويتفق إقبال مع برغسون بأن الحدس والعقل، ليسا طريقين متضادين إلى المعرفة، بل هما يكملان بعضهما بعضاً. يقول إقبال:

«وليس هناك من سبب يدعو إلى الظن بأن الفكر والبداهة متضادان بالضرورة، فهما ينبعان من أصل واحد، وكل منهما يكمل الآخر، فأحدهما يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً، والآخر يدركها في جملتها، كلاهما يفتقر إلى الآخر لتجديد قواه، وكلاهما شهود نفس الحقيقة التي تكشف كل منهما على نحو يتلاءم ووظيفته في الحياة، وفي الحق أن البداهة – كما يقول برغسون – ليست إلا ضرباً عالياً من التفكير[١].

(١) المرجع السابق – ص ٧.